

الاسترجاع العاطفي في شعر أبي فراس الحمداني

أ.م.د. نوار عبدالنافع الدباغ* و.م.م. وليد عبد ياسين*

تأريخ التقديم: ٢٠١٧/١٢/٧

تأريخ القبول: ٢٠١٨/١/٣

مدخل لتوضيح مفردتي الزمن والعاطفة:

يشكل الزمن عاملاً مهماً في صياغة النص الأدبي، الذي يمثل الدعامة الأساسية لمرتكزاته، ولا يمكن قطعاً أن يصاغ ذلك النص الأدبي بعيداً عن شذرات الزمن التي تزيده بريقاً وجمالاً، وتعمق من تأثيره في النفس المتلقية؛ وذلك لأنّ الأدب "فن زمني"^(١)، ويشكل الزمن ركناً أساساً من أركان الأعمال الأدبية، ويعكس المحصلة النهائية لتجربة الإنسان في الحياة وخبرته فهو "الصورة المميزة لخبرتنا"^(٢). ويتسم الشعر بكونه حاوياً لجميع الأزمنة التي تتداخل فيما بينها لتعطي القصيدة شكلاً فنياً يعبر عن خفايا نفس الشاعر. والشاعر في لحظة نظمته للشعر يختار الزمن المناسب للأفكار التي يريد أن ينظمها، فيرجع إلى ماضيه الذي يعد منجماً لإثارة القضية التي يريد أن يسوقها، وهذا ما يسميه النقاد (الاسترجاع)، أو (الاستدكار)^(٣). وعند استخدام السارد لهذه التقنية فإنّه ينتقل من لحظة الصفر في الحاضر إلى ماضيه القريب من زمن السرد أو البعيد، ليوظف أفكاراً تقوم بدورها بإضاءة حدثٍ أو توضيح فكرة. وهذه التقنية -الاسترجاع- موجودة في الشعر أيضاً، إذ يقوم الشعراء بصياغة قصائدهم التي لا تكاد تخلو من رجوعهم

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

* وزارة التربية العراقية/ مديرية تربية نينوى .

(١) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، د. حسني عبدالجليل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، د-ط، د-ت: ١٨.

(٢) الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ترجمة: د. أسعد رزوق، مراجعة: العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة، نيويورك، ١٩٧٢م: ٧.

(٣) ينظر: مدخل إلى نظرية القصة "تحليلاً وتطبيقاً" جميل شاكر وسمير المرزوقي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د-ط، ١٩٨٦م: ٧٦. وينظر: بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية" حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط ١. ١٩٩٠م: ١٢١.

واسترجاعهم لماضيهم والاقتباس منه، رغبة في إضفاء الحيوية والحركة على القصيدة^(١)، ورجوع الشاعر إلى ماضيه أشدّ ما يكون في لحظة فقدانه لحبيبه أو شبابه. وعند قراءتنا لديوان أبي فراس الحمداني، رأينا استخدامه لهذه التقنية بصورة لافتة للنظر، ورجوعه إلى ماضيه في أغلب قصائده، فضلاً عن ذلك فإنه كان يسترجع أيام العرب ومواقعهم ومعاركهم كي ينير بها فكرة أو يوضح مسألة، أو يشدّ بها عزمه، أو عزم "سيف الدولة" وجنده.

العاطفة هي شريان الحياة الذي يجعل الإنسان متعاطفاً ورقيقاً مع كلّ ما حوله، تدفعه غريزته الإنسانية العظوفة للتعلق بكلّ جزئيات الحياة صغيرها وكبيرها، وتجعل العاطفة المشاعر الإنسانية تتحرك وتتجذب لأيّ شيء يحرك خيالها وأفكارها، كونها "حالة شعورية تندفع من النفس البشرية إثر انفعالها بحدث تراه أو تسمعه، أو بمشهد يؤثر فيها"^(٢). والإنسان الذي يتسم بقوة العاطفة يفيض رقةً وحناناً لناسه وأهله ومواطنه؛ لأنّ العاطفة "تعني له كلّ ما يحس به في ذاته، ثم حياته الشعورية، في مقابل أفكاره وأفعاله"^(٣)، والعاطفة شديدة الارتباط بالإنسان الشاعر، لما يمتلكه من مشاعر وأحاسيس مرهفة، تجعله يرى ما حوله بزاوية تختلف عن غيره "فلا يصدر شعره إلّا بدافع من عاطفته"^(٤). والشاعر أبو فراس كما عُرف عنه غلبت على نفسه وشعره العاطفة، فلم يكن شعره لأجل كسب المال أو السلطة أو الجاه، وهذا كلّ جعل شعره صافياً نقيّاً عذباً مصدره الأساس العاطفة، التي تتسم بكلّ صفات الألفة وغريزة حب البقاء والمشاركة

(١) ينظر: الزمن في شعر تميم بمن مقبل، فنن نديم دحام آل إبلش، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م: ١٥٨.

(٢) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م: ٦١٢.

(٣) المعجم الأدبي، جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٤م: ١٦٨.

(٤) المعجم المفصل في الأدب: ٦١٣.

الوجدانية مع الآخرين^(١). وسنقوم بدراسة قصيدتين للشاعر لنرى كيف وظّف فيهن تقنية الاسترجاع التي اتسمت بطابع العاطفة تجاه كلّ ما يحن إليه ويشтаقه.

- من الوافر -

١. وَقُوفُكَ فِي الدِّيارِ عَلَيْكَ وَقَدْ رَدَّ الشَّبَابُ الْمُسْتَعَارُ^(٢)

هذه القصيدة قالها الشاعر في زمن حريته قبل أن يأسر، ينطلق فيها من أغلال الحاضر وسكونه وجفوته، صوب الماضي حيث السعادة والألفة والمحبة، فنرى كثرة الجمل الأسمية التي زادت من سكون الزمن وتحجره، ولم يورد إلا فعلاً واحداً (رَدَّ) وهذا يشير على الأزمة النفسية التي عصفت بمخيلته جراء ما تشعر به من ضيق الحاضر. و نرى هيمنة بنية الفعل الماضي على أغلب أبيات القصيدة، التي قامت بدورها بعملية الاسترجاع. والجمل الفعلية التي وظفها بعثت فيه الأمل وزادت من فاعليته ونشاطه وأبعدته عن الركود. وسنقوم بتقسيم القصيدة إلى محاور للوصول إلى أهم الأفكار التي تضمنتها القصيدة.

المحور الأول:

١. وَقُوفُكَ فِي الدِّيارِ عَلَيْكَ وَقَدْ رَدَّ الشَّبَابُ الْمُسْتَعَارُ
٢. أَبْعَدَ الْأَرْبَعِينَ
٣. نَزَعْتُ عَنِ الصَّبَا، إِلَّا بَقَايَا،
٤. وَقَالَ الْغَانِيَاتُ: "سَلَا، غُلَاماً،
٥. وَمَا أَنْسى الزَّيْرَةَ مِنْكَ، وَهَنَاءَ،
٦. وَطَالَ اللَّيْلُ بِي، وَلَرَبَّ دَهْرٍ
٧. وَ نَدْمَانِي: السَّرِيعُ إِلَى
٨. تَمَادٍ فِي الصَّبَابَةِ، وَاعْتِرَازُ؟ !!
٩. يُحْفِدُهَا ، عَلَى الشَّيْبِ، الْعَقَارُ
١٠. فَكَيْفَ بِهِ ، وَقَدْ شَابَ الْعِدَارُ؟ "
١١. وَ مَوْعِدُنَا "مَعَانٍ" وَ "الْحِيَارُ"
١٢. نَعِمْتُ بِهِ، لِيَأْلِيهِ قِصَارُ
١٣. عَلَى عَجَلٍ، وَأَقْدَاجِي الْكِبَارُ

(١) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت- لبنان، د- ت،

١٩٨٢م: ٤٣/٢.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، جمعه ونشره وعلق حوشيه ووضع فهرسه، د. سامي الدهان، بيروت-

لبنان، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م: ١٧٦/١.

تضمن هذا المحور ثنائية (الشباب والمشيب) التي تترجم لنا موقف الشاعر "في لحظة الألم والحسرة واستسلامه فيها إلى استذكار محطات الماضي المفعمّة بالبهجة"^(١). بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة طلبية في الوقوف واستذكار الديار التي ترمز للاستقرار والثبات والأمان فضلاً عن ذلك فإنّها "ترمز إلى الأهل والأحباب الذين هجروها، وإلى الحياة التي انقضت وحل مكانها الفناء"^(٢)، والوقوف في الديار تذكر للزمن الذي ألفه الشعراء، فتكون الديار داعياً للنظر والتأمل في زمنه الماضي، ذلك أنّ الماضي "يحتل مكانة مهمة من حياة الفرد كلما تقدم به السن"^(٣). وظّف الشاعر الحوار الداخلي (المونولوج) محاوراً ذاته المعنوية الحسية وذلك لما لهما من علاقة بأحداث الحب وأعماق الشعور، فكثيراً ما يلجأ الشاعر إلى هذا الحوار الذي له علاقة بخلجات النفس فيضطر إلى مخاطبتها"^(٤)، محاولاً إبعاد ذاته عن هاجس القلق الذي اعترأها بسبب المشيب. تبدأ القصيدة بالمصدر (وقوفك) الذي يدل على السكونية والثبوت، يحاور فيه ذاته "محاولاً إيجاد الطريق لتسوية المتناقضات الداخلية وتعليل الخلجات المختلفة التي يزدحم بها عالمه الداخلي"^(٥)، وهذه محاولة من الشاعر لإيقاد نار التجدد في حياته، ونلاحظ أنّه جعل الوقوف في الديار عاراً، فقدّم شبه الجملة (عليك) لزيادة توكيد الخبر وتثبيته، وجاء تنكير الخبر (عار) ليشمل كل الصفات الذميمة التي لا تليق بالفارس الشجاع، ولعل سبب امتناعه عن الوقوف في الديار؛ لما تحمله الديار من علامات القوة المدمرة التي يولدها الزمن أثناء

(١) البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية، سعدية أحمد مصطفى، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م: ١٤٦.

(٢) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: ١٢٦.

(٣) سيكولوجية الزمن اتجاهات وتطبيقات حديثة، د.محمد قاسم عبدالله، مجلة المعرفة، العدد ٤٤٥، أكتوبر ٢٠٠٠م: ٧٢.

(٤) الحوار في شعر أبي فراس الحمداني دراسة تحليلية، د. ساهرة محمود يونس، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، كلية التربية، المجلد ٣، العدد ٣، كانون الأول ٢٠٠٦م: ٢٣٩.

(٥) موقف الشعراء في عصر ما قبل الإسلام تجاه الزمن بين التحدي والاستسلام، حسن صالح سلطان، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م: ١٤٣.

مروره بالأشياء فيجعلها بالية محطمة^(١). وأطلق الشاعر على شبابه صفة (الشباب المستعار)، وهي صفة أطلقها الشعراء الجاهليون على شبابهم^(٢)، إذ أنَّ الشباب "جذوة الحياة التي سرعان ما تبرد"^(٣)، وعبر عن رحيله بالفعل الماضي المبني للمجهول (رُدَّ) المسبوق بـ(قد) التي تفيد التحقيق^(٤)، ليحقق ويثبت ذهاب شبابه ذلك أنَّ دوامه "غاية لا تدرك"^(٥). ولعلنا نستطيع القول أنَّ سبب امتناعه عن الوقوف في الديار؛ لأنَّ مشيبه لم يكن من جراء تقدم السن؛ بل أنَّ الشيب طغى عليه وهو في عنفوان شبابه، الأمر الذي جعله يُصدم بهذه المحنة التي لم تكن بحسبانته، إذ بدأ الشيب يظهر في سواد شعره وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وذكر لنا ذلك في قصيدة أخرى بقوله:

٣. وَمَا زَادَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِي فَمَا عُدْرُ الْمَشِيبِ إِلَى عِذَارِي؟^(٦)

فبهذا يكون الشاعر قد أُصيب بمحنة المشيب قبل أوانه، ولعل سبب تشاؤمه من المشيب؛ لأنَّه كان يحمل في أفكاره الآمال والطموحات التي لا تكتمل إنَّ لم يسعفها الزمن بالعمر الطويل، فمما سبق نستطيع القول أنَّ الزمن في نظره يقف عائقاً أمام تحقيق تطلعاته لحياة هائلة سعيدة.

٢. أَبْعَدَ الْأَرْبَعِينَ تَمَادٍ فِي الصَّبَابَةِ، وَاعْتِرَارُ؟!..

نلاحظ أنَّ مفردة العدد (الأربعين) لم يقصد بها الشاعر عمره الحقيقي، لأنَّه لم يعيش إلا سبعة وثلاثين عاماً كما أشارت المصادر، وهذه القصيدة قد رجَّح أغلب الباحثين

(١) ينظر: الزمن الأبدى الشعر الصوفي: الزمان، الفضاء، الرؤيا: ١٦.

(٢) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبدالإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م: ١٤٣.

(٣) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: ١٤٣.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني، صنعة الحسن بن قاسم المرادي، تح. د. فخرالدين قباوة، و أ. محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م: ٢٥٩.

(٥) البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية: ١٥١.

(٦) ديوان أبي فراس الحمداني، تح. د. سامي الدهان: ٢٢٥/١.

أنه قالها قبل أسره^(١)، أي قبل أن يتجاوز الثلاثين من عمره، فجاءت مفردة (الأربعين) تعبيراً مجازياً كنوع من الإعراض والانتهاه عن اللذة والغرور وصيانة النفس^(٢)، وهذه المرحلة من العمر كانت تمثل في نظره بداية نهاية الشباب.

٣. نَزَعْتُ عَنْ الصَّبَا، إِلَّا بَقَايَا، يُحَفِّدُهَا، عَلَى الشَّيْبِ، الْعَفَا

يوظف الفعل الماضي (نَزَعْتُ) أي انتهيت وتتصلت عن الصبا، كي يدلل ويرسخ في ذهنه عدم التحسر على ما فاتته من سالف الأيام، فضلاً عن ذلك فإنَّ الفعل (نزع) المتصل بتاء الفاعل، يخبرنا بأنَّه قد تتصل عن الصبا بكامل إرادته عكس الشباب الذي أنتزع منه انتزاعاً. وتأتي ثنائية (اللذة والألم) المتمثلة برغبة الغانيات بالشباب والقوة التي تبعث في نفسه اللذة، ونفوره من المشيب الذي يمثل له قمة الألم والقلق، والمشييب "يؤدي إلى هرب النساء وابتعادهن عن الشاعر"^(٣)، مما أفضى به إلى الشعور بالوحدة، ولعلنا نستطيع القول أنَّ في هذه الأبيات تخطيط وعدم ثبات ذات الشاعر تجاه اللحظة الحاضرة التي تشظت أفكاره فيها صوب الرغبة بالشباب المتمسك بالقوة لتحقيق طموحاته، والعزوف عن الشباب الذي يفتقر إلى القوة، وذلك لأنَّ مرحلة المشيب التي تصيب الإنسان "تتسم بالضعف والعجز وعدم القدرة على تحقيق الذات، وتقترن بالانتهاه"^(٤). وسبب ذكره للغواني في معرض حديثه عن المشيب؛ لأنَّ المرأة الغانية سمة من سمات الشباب إذ تمثل له "الحياة والبقاء، فضلاً عن كونها عنصراً حيوياً يعطي معنى وجودياً لحياته؛ لذلك فإن ابتعادها عنه موت وفناء"^(٥).

٥. وَمَا أَنْسَى الزِّيَارَةَ مِنْكَ، وَهَنَاءً، وَ مَوْعِدُنَا "مَعَانٌ" وَ "الْحِيَارُ"

(١) ينظر: أبو فراس الحمداني حياته وشعره، د.عبدالجليل حسن عبدالمهدي، مكتبة الأقصى، عمان -

بيروت، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م: ١٨، ٨٢.

(٢) ينظر: الأسير الحر، أحلام يحيى، إصدارات نون، د- ط، د- ت: ٢٠، ٢١.

(٣) البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية: ١٤٩.

(٤) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: ١٢٦.

(٥) البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية: ١٤٩.

يوظف الشاعر الفعل الماضي المنفي (وما أنسى) مخاطبا حبيبته ليثبت لها عدم نسيانه للزيارة التي حصلت بينهما، لما يمتلكه من صدق العاطفة تجاهها، فقد أحسَّ أنَّ نسيانه لها يعني النهاية والهلاك، وفيه نسيان لحظات السعادة مع الحبيبة؛ لارتباط النسيان بالحاضر والتذكر يرتبط بالماضي فهو يرفض النسيان لأنَّه حاضر ويتشبَّه بالتذكر لأنَّه ماضٍ. ويورد المكانين (معان) و (الحيار) اللذين يحتضنان زمنه الماضي السعيد، و"المكان الذي غلب عليه طابع الفرح والألفة يبقى راسخاً في ذاكرتنا لرغبتنا ببقائه وعدم زواله"^(١)، ويصبح للمكان حساً أصيلاً وعميقاً في الوجدان البشري وخصوصاً إذ كان مكاناً للألفة ومرتبطةً بهناءً وصبايات الصِّبا^(٢)، وتعلقه بمكاني الزيارة لأنَّهما ترسبا في ذاكرته وجعله يجذب إليهما، فالمكان يؤدي إلى تشتيت الحزن وتخفيف الضجر ويجد فيه الشاعر قيم التمدد والاستمرار^(٣)، وربما ثبات المكان في ذهنه جعله يقرر عدم نسيان زمن زيارته، فالمكان "يرفض أية تصورات لا تربطه بالحركة"^(٤).

المحور الثاني:

- | | |
|--|---|
| ٨. عَشِفْتُ بِهَـا عَوَارِي | [أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرُّحْضِ الْمِعَارِ] |
| ٩. وَكَمْ مِــــنْ لَيْلَةٍ لَمْ أَزَوْ | حَنَنْتُ لَهَا، وَأَرْقِي ادِّكَارَ ..! |
| ١٠. قَضَانِي الدِّينَ مَاطِلُهُ، وَوَافِي، | إِلَيَّ بِهَا، الْفَوَادُ الْمُسْتَطَارُ |
| ١١. فَبِتُّ أَعْلُ خُمْراً مِــــنْ | لَهَا سَكْرٌ وَلَيْسَ لَهَا خُمَارُ |
| ١٢. إِلَى أَنْ رَقَّ ثَوْبُ اللَّيْلِ عَنَّا | وَقَالَتْ: قُمْ ! فَقَدْ بَرَدَ السُّوَارُ! |
| ١٣. وَوَلَّتْ تَسْرِقُ اللَّحَظَاتِ نَحْوِي | عَلَى فَرْقٍ كَمَا التَّقَّتِ الصُّوَارُ |

(١) ينظر: جماليات المكان، غاستون بشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م: ٤٠.

(٢) ينظر: جماليات المكان، اعتدال عثمان، مجلة الأقلام، العدد ٢، السنة ٢١، شباط ١٩٨٦م: ٧٧.

(٣) ينظر: جماليات المكان، غاستون بشلار: ١٨٣.

(٤) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط١، ١٩٨٦م: ١٩.

١٤. دَنَا ذَاكَ الصَّبَاحُ، فَلَسْتُ أَدْرِي أَشَوْقٌ كَانَ مِنْهُ؟ أَمْ ضَرَارٌ؟

١٥. وَقَدْ عَادَيْتُ ضَوْءَ الصُّبْحِ لَطَرْفِي، عَنْ مَطَالِعِهِ،

يمثل هذا المحور هروبه من زمن المشيب إلى سعادة وراحة زمن الشباب، واستعادة زمن الشباب يمثل له انتصاراً حقيقياً على المشيب^(١)، واستدعاء الماضي يعني "استدعاء قوة ذلك الماضي لتفعيلها في الحاضر والمستقبل"^(٢)، ليعطي زمنه الحاضر صبغة وسمات زمنه الماضي؛ "ليبعد عنه وطأة الحاضر والمستقبل، وليهرب من ذاته، وليغذي النزيف الذي يجري في شرايينه ويتخذ شكلاً لذكريات تلح عليه أن يموت في ظلالها، فيتخلص من واقع متعب ومن مستقبل يتخيله مرعباً"^(٣)، فقدوم الشيب يعد غربة للشاعر عن الصبا والتلذذ بالحياة، وهذا يتنافى مع عاطفته التي تأبى أن تفارق كل ما هو عزيز على قلبه.

وما يخص ليلاليه فقد كانت مبنية على ثنائية (اللذة والألم)، فمنها: ليلال هائلة سعيدة، يسعد بلدتها وحلاوتها بقرب حبيبته إلا أنها سريعة المرور، وليال حزينة أليمة طويلة مفعمة بالحزن وبالحنين والعواطف لما فقدته من وصال الحبيبة، والليل يطول عليه ويقصر "تبعاً للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر"^(٤)، فنراه يوضح لنا حال ليله في حاضره الذي طال به إذ يقول:

٦. وَطَالَ اللَّيْلُ بِي، وَلَرَبَّ دَهْرٍ نَعِيتُ بِهِ، لَيْلِيهِ قِصَارُ

٩. وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ لَمْ أَرَوْ مِنْهَا حَنَنْتُ لَهَا، وَأَرْقِي ادَّكَارُ!..

(١) ينظر: العزلة والمجتمع، نيقولاى برديائف، ترجمه: فؤاد كامل، راجعه: علي أدهم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، د-ت، د-ط: ١٧٢.

(٢) شعرية النص المعري دراسة فنية لنظم البناء في سقط الزند، نوار عبدالنافع الدباغ، أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م: ١٤٠.

(٣) الشعر والزمن، جلال الخياط، منشورات وزارة الأعلام، سلسلة الكتب الحديثة (٨)، العراق، د-ط، ١٩٧٥م: ١٩.

(٤) البعد النفسي وأثره في التعبير عن الزمن (طول الليل في الشعر الجاهلي)، أ.د. هاشم صالح المناع، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد ١٥، السنة ١٤١٨م، ١٩٩٨م: ٢١٥.

يصور الشاعر في هذيت البيتين مشهداً من مشاهد تتأقل الليل وانعدام الحركة فيه مما جعله يضيق ذرعاً من شدة وطأته لأنّه "إذا ازداد القلق وبلغ أوجه شعرنا بأنّ الزمن قد وقف نهائياً"^(١)، والليل ميدان تذكر الأحباب يصب فيه الشاعر آلامه ومشاعره وعواطفه تجاه من تعلق بهم^(٢)، فضلاً عن ذلك فإنّ الليالي التي تتعم بها مع الحبيبة كانت قليلة لم يجد منها ما يشبع عواطفه بدلالة حرف التقليل (ربّ)^(٣). ونراه يختزل الزمن الماضي عن طريق ذكره للياليله الماضية التي وصفها بسرعة ذهابها، وهذا يدل على مدى سعادة تلك الليالي، والسعادة عند الإنسان تصنع نوعاً من الانسجام بين الذات الإنسانية وعالمها الخارجي، فتحس بسرعة مرور الزمن^(٤).

ونلاحظ استخدام الشاعر لـ (كم) الخبرية التي تفيد الإخبار بالكثرة، عبّر بها عن كثرة لياليله اللاتي لم يرتو فيهن من وصال الحبيبة. ونلاحظ استخدامه للفعل الماضي المشدد (أرّقني) الذي يدل على زيادة وثقل الأرق الذي يعانيه من خلال استذكاره لتلك الليالي. ويستخدم مفردة (مماطل) التي تحمل كل معاني "التسويق والمدافعة بالعدة"^(٥)، للتعبير عن حال الحبيبة التي كانت كالمماطل الذي لا يقضي الدين الذي عليه إلّا بكثرة المطالبة، وتمهله وتوعده بقرب لقائها به. واستذكار الشاعر لليالي الألفة؛ كي يحول تلك اللحظات من صفة الزوال إلى صفة البقاء الطويل والاستمرار^(٦)، ومحاولته الهروب من

(١) الزمان الوجودي، عبدالرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت - لبنان، د- ط، ١٩٧٣م: ١٧٤.

(٢) ينظر: الزمن في شعر شعراء الرسول، عمار حازم محمد علي الشاهر العبيدي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الموصل، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م: ٤١.

(٣) ينظر: الجنى الداني في الحروف والمعاني: ٤٤٠.

(٤) ينظر: المشكلة الخلقية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، د- ط، ٢٠٦.

(٥) لسان العرب، ابن منظور الأنصاري (٦٣٠ - ٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م: [مادة مطل] ١٤٣/١٤٣.

(٦) دراسة فنية في الأدب العربي، د. عبد الكريم اليافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م: ١٤٥.

الواقع المرفوض، إذ أنَّ ذكره لليلي وصاله تبعث فيه الراحة والاطمئنان والسعادة، إذ بات معها وهو يرتشف خمراً من ريقها الذي يسكره ولا يخامر عقله ولا يفقده وعيه، إذ يقول:

١١. فَبِتُّ أَعْلُ خَمْرًا مِّنْ رِّضَابٍ لَهَا سَكْرٌ وَلَيْسَ لَهَا خَمَارٌ

ولعله أراد أن يثبت وجوده مع الحبيبة بكامل وعيه وصحته، وأن يبرهن على حصوله على لذته منها التي كان يترقبها، فضلاً عن ذلك فإنَّ استخدامه للخمرة لما تقوم به من دور في اخراج الذات من نطاقها الحالي وتضعها على درب العودة في وجودها الأول^(١). وكُنَى الشاعر عن قرب انتهاء لقائه بقوله (رق ثوب الليل)، مع كل ما تحمله مفردة (رق) من السلاسة واللين، لكي يجعل ليلته أكثر نقاءً وعدوية، وكُنَى بـ (برد السوار) عن بداية انبلاج النهار الذي كان يمثل نهاية لقائه. وبرود السوار هو برود الخمرة وذهاب حدتها ودبيبها في شاربها^(٢)، فجاءت هذه اللفظة حاملةً لكل معاني فقدان اللذة وانتهائها.

١٤. دَنَا ذَاكَ الصَّبَاحُ، فَلَسْتُ أَدْرِي أَشَوْقٌ كَانَ مِنْهُ؟ أَمْ ضِرَارٌ؟

١٥. وَقَدْ عَادَيْتُ ضَوْءَ الصُّبْحِ لَطْرَفِي، عَنْ مَطَالِعِهِ، أَرْوَارٌ

نرى في البيتين السابقين نظرته تجاه الضدين (الليل والنهار)، فالليل عنده إذا كان وصلاً فالسرور يملأه، وإذا كان خالياً من اللقاء فيكون ليل الهم والحنين المتجذر بالعواطف، أما النهار فكان يشكل عنده عدواً يستلب منه الحبيبة، ولعل المفارقة تكمن عند الشاعر بتفضيله الليل الذي يمثل السرور، على النهار الذي يتسم بالهموم، ذلك أنَّ الليل هو السواد، والنهار هو الشروق والبياض والنصوع، ولعله كان متحسراً على الليل الذي يذكره بطابع الشباب، عكس النهار الذي كان يتألم منه ويشبهه بالشيب الذي لا يقوى على تحمله، فظهور الشيب يعني نهاية زمن الغرام والعاطفة، وهو بهذا يكون معادلاً موضوعياً لضوء النهار الذي يسلبه الشباب ويحرمه منه.

(١) الزمن الأبدي الشعر الصوفي: الزمان، الفضاء، الرؤيا: ١٧٠.

(٢) لسان العرب: [مادة سور] ٤٢٥/٦، ٤٢٦.

المحور الثالث:

١٦. و مضطغن يراود في عيباً سَيلْقَاهُ، إِذَا سُكِنَتْ وَيَارُ
١٧. وَأَحْسِبْ أَنَّهُ سَيَجْرُ حَرْباً عَلَى قَوْمٍ ذُنُوبُهُمْ صَغَارُ
١٨. كَمَا خَزَيْتَ بِـ " رَاعِيهَا " تَمِيزُ، وَجَرَ عَلَى "بني أسدٍ" "يسارُ"

التفت الشاعر في هذا المحور إلى الإنسان الحاقد والشامت، الذي يمثل عدواً له في كل مراحل حياته، فالحاقد يتألم عندما يرى غيره ينعم بالعز والرفاهية، ولعله أحسَّ بأنَّ مرحلة المشيب ستجعله عرضة لهذا الحاقد، فأراد أن يحدَّ من نشاطه تجاهه، فضلاً عن ذلك فإنَّ - الحاقد - إذا حاول ذلك سيكون سبباً في هلاك قومه، وليؤكد خطر هذا الحاقد على قومه استرجعت ذاكرته للأحداث التاريخية لقصة الشعارين (الراعي النميري) و(جرير)، وقصة (يسار) عبد للشاعر (زهير بن أبي سلمى)، وقصة هذين الشخصين معروفة في كتب الأدب، إذ كانا سبباً في مرافقة الخزي لعشيرتيهما على طول الزمن بسبب ما اقترفاه من ذنب^(١).

المحور الرابع:

١٩. وَكَمْ يَوْمٍ وَصَلْتُ بِفَجْرِ لَيْلٍ كَأَنَّ الرِّكْبَ تَحْتَهُمَا صَدَارُ؟
٢٠. إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ امْتَدَّ لَيْلٌ كَأَنَّا دُرَّةً، وَهُوَ الْبَحَارُ
٢١. يَمُوجُ عَلَى النَّوَاطِرِ، فَهُوَ مَاءٌ وَ يَلْفَحُ بِالْهَوَاجِرِ فَهُوَ نَارُ
٢٢. إِذَا مَا الْعِزُّ أَصْبَحَ فِي مَكَانٍ سَمَوْتُ لَهُ، وَإِنْ بَعْدَ الْمَرَارِ
٢٣. مَقَامِي، حَيْثُ لَا أَهْوَى، قَلِيلٌ وَنَوْمِي، عِنْدَ مَنْ أَقْلِي غِرَارُ
٢٤. أَبَتْ لِي هَمَّتِي، وَغِرَارُ سَيْفِي، وَغَزْمِي، وَالْمَطِيئَةُ، وَ الْقِفَارُ
٢٥. وَنَفْسٌ، لَا تَجَاوِزُهَا الدَّنَايَا وَعِرْضٌ، لَا يَرِفُّ عَلَيْهِ عَارُ
٢٦. وَقَوْمٌ، مِثْلُ مَنْ صَحِبُوا، كِرَامٌ وَخَيْلٌ، مِثْلُ مَنْ حَمَلَتْ، خِيَارُ

(١) ينظر: ديوان أبي فراس الحمداني، تح، د. سامي الدهان: ١/١٧٧، ١٧٨.

٢٧. وَ كَمْ بَلَدٍ شَتَّتْنَاهُ فِيهِ ضُحَى، وَعَلَا مَنَابِرُهُ الْغُبَارُ
 ٢٨. وَخَيْلٍ، خَفَّ جَانِبُهَا، فَلَمَّا دُكِرْنَا بَيْنَهَا نَسِي الْفِرَارُ
 ٢٩. وَ كَمْ مَلِكٍ، نَزَعْنَا الْمُلْكَ عَنْهُ، وَ جَبَّارٍ، بِهَِا دَمُهُ جُبَّارُ؟
 ٣٠. وَكُنَّ إِذَا أَعْرَضْنَا عَلَى دِيَارٍ رَجَعْنَ، وَمَنْ طَرَأَ دَهَا الدِّيَارُ
 ٣١. فَقَدْ أَصْبَحْنَ وَالِدُنِيَا جَمِيعاً لَنَا دَارٌ، وَمَنْ تَحْوِيهِ جَارُ
 ٣٢. إِذَا أَمْسَتْ نِزَارُ لَنَا عبيداً فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُم

جعل الشاعر هذا المحور مسرحاً لتقديم مؤهلاته في الحروب، وبما يتصف به من قوة وبسالة وإقدام وتقاني، كي يكون هذا المحور هو الطرف الثاني الذي يعلن فيه عن قدرته على التغلب على المشيب، بدأ فيه بذكر ما حفل به ماضيه من أصناف البطولات في سوح الوغى، فقدم لنا نظرته تجاه الزمن وبخاصة مرحلة المشيب التي تفتقد كل ما ذكره في القصيدة، فضلا عن ذلك فقد قامت تلك المغامرات الماضية ببعث الهمة والنشاط والحركة فيه، كي لا يرضخ لسبات زمن المشيب والآمه، إذ جاءت الأبيات حافلة بالحركة والسرعة، مفتخراً فيها بشجاعتهم وإقدامه.

سنتناول قصيدة ثانية من قصائد أبي فراس التي قالها في أسره، وهي من الروميات. إذ ينقل لنا محقق ديوانه الدكتور سامي الدهان ما رواه ابن خالويه عن هذه القصيدة "وَكُتِبَ أَبُو فِرَاسٍ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ، بِمَا قَرَّرَهُ مَعَ مَلِكِ الرُّومِ مِنَ الْفِدَاءِ؛ فَتَأَخَّرَتِ الْأَجُوبَةُ فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو فِرَاسٍ، يَعْثُبُ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْطِئُ أَمْرَهُ، فَوَجَدَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَرَّعَهُ فِي كُتْبِهِ إِلَيْهِ وَ إِلَى غَيْرِهِ؛ فَكُتِبَ أَبُو فِرَاسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (١) :

- الطويل -

١. أَبَى غَرْبُ هَذَا الدَّمْعِ إِلَّا تَسْرِعَا وَمَكْنُونُ هَذَا الْخُبِّ إِلَّا تَضُوعَا

تمثل القصيدة صرخة حزن وألم تصدع لقلب الشاعر، فتجول به الأفكار والذكريات والعواطف في خياله، يسلط فيها الضوء على حبه الصادق لـ "سيف الدولة" الذي يمثل استمرار الزمن المفعم بالمودة والمواصلة، فضلا عن ذلك فإن الوشاة الذين قاموا بحياكة

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، تح. د. سامي الدهان: ٢٤٥/١.

الدسائس ضده، وتأليب "سيف الدولة" عليه، فلما بلغت هذه الأخبار، زادت هماً على هم "قبت خلالها وخزات أشبه بوخزات الإبر، إذ يقول فيها متحسراً على ما آل إليه أمره من إغفال في الأسر - وهو الذي وهب عمره فداءً لأميره-"^(١)، الأمر الذي جعله يتأرجح بين زمن ماض يرفل بالمحبة والغبطة والمجد والسودد، وبين زمن حاضٍ اجتمعت فيه كل معالم الحزن والركود والهوان وتقطع حبال الوصل مع أحبابه. ونرى أفكاره قد قُسمت على سبعة محاور، سنقوم بتحليلها، وإعطاء صورة كلية لما اشتملت عليه من صدق أحاسيسه وعاطفته تجاه زمنه الماضي.

المحور الأول:

١. أْبَى غَرْبُ هَذَا الدَّمْعِ إِلَّا تَسْرُعًا وَمَكُونُ هَذَا الْبِ إِلَّا تَضُوعًا
٢. وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي مَعَ الْحَزْمِ وَاجِدٌ، إِذَا شِئْتُ لِي مَمَضَى وَإِنْ شِئْتُ مَرْجِعًا
٣. فَلَمَّا اسْتَمَرَّ الْحَبُّ فِي غُلَوَائِهِ، رَعَيْتُ مَعَ الْمِضْيَاعَةِ الْحُبَّ مَا رَعَى
٤. فَحَزَنِي حُزْنُ الْهَائِمِينَ مُبَرَّحًا، وَ سَرِي سِرُّ الْعَاشِقِينَ مُضِيْعًا
٥. خَلِيلِي، لِمَ لَا تَبْكِيَانِي صَبَابَةً، أَبْدَلْتُمَا بِالْأَجْرَعِ الْفَرْدِ أَجْرَعًا؟
٦. عَلَيَّ، لِمَنْ ضَنْتُ عَلَيَّ جَفُونَهُ غَوَارِبُ دَمْعٍ يَشْمَلُ الْحَيَّ أَجْمَعًا

جاءت مقدمة القصيدة محملة بكل معاني العاطفة والحزن والألم، وفقدان السيطرة على أحاسيسه وانفعالاته، غلب عليها طابع الغزل الذي يكوئ الأفتدة^(٢)، صور الشاعر فيها حاله في زمن الأسر أدق تصوير، ومنها تأخر مفاداة "سيف الدولة"، وتتناسي الخلان وجفوتهم له، والإنسان عند التألم يشعر بوجوده الفردي وفقدانه لروح الجماعة، لما يمثله الألم من شعور بالوحدة وانفصال عن الكون^(٣)، فجاءت عباراته مطرزة بالحزن والحسرة، بدأها بالفعل الماضي (أبى) الذي يحمل كل دلالات الأنفة والطغيان، وعدم الرضوخ لأي

(١) أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي، د. النعمان القاضي، دار الثقافة للنشر والتوزيع،

القاهرة- مصر، د-ط، ١٩٨٢م : ١٢٣.

(٢) ينظر: أبو فراس الحمداني حياته وشعره: ٣١٠.

(٣) ينظر: المشكلة الخلقية: ٢٠٦.

أمر، فأشار هذا الفعل على هوان الشاعر، وفقدانه للتوازن النفسي، الأمر الذي جعل دمه يتزايد في سرعته انهماره، وحبّه الذي أكنه بين جوانحه سأم حاله، فلم يصبر على فراق كل ما أحبه ووده قبل الأسر، خرج عن طوع صاحبه وأبى إلا الانتشار بين الناس مفارقاً زمن الكتمان والخوف. ونلاحظ التصريح في مقدمة القصيدة الذي "يؤذن بانفتاح دائرة جديدة ويكشف تغير موقف الشاعر ورؤيته"^(١). فحملت القصيدة كل ما اكتشفه من تغير طراً على زمنه وأفكاره وأصحابه.

ينتقل إلى استرجاع زمنه الماضي الذي كان متمسكاً بصدق العواطف والحزم والسيادة لا تحده أرض ولا تمنعه أسوار، يذهب حيث شاء ويرجع متى شاء، عكس زمنه في الأسر الذي قيده بقيود الضعف. ويمكننا القول أنه أراد بالحزم "سيف الدولة" الذي طالما تعلق به وأحبه واتصف بصفاته وامتلأ لأوامره، ونرى حبّه للمجد وللحزم يستمر ويزيد في الشدة والعذاب، الأمر الذي جعله ينقاد له. ونرى في هذه الأبيات شدة تعلقه بأحبابه وأولهم "سيف الدولة" بكل ما تحمل دلالة (الهائم، العاشق) من حرارة العاطفة، ولهفة لقاء الأحبة، وتصعد الأفئدة شوقاً إليهم. وبعد أن أفصح عن حبه، نراه يحاول أن يجد مُنفذاً يجيره من هذه المحنة، وعلى عادة الشعراء يلتفت لمناداة خليليه بصيغة المثني؛ رغبة في التخلص من القلق والتأزم الذي يلقاه في المكان الموحش. ونرى شدة العواطف التي يحملها الشاعر صيرته انسان ودوداً متعلقاً بناسه وأهله رغم تناسيهم له، وعدم بكائهم عليه، ونرى في الأبيات دمه يسيل حزناً لفراقهم وفراق كل من ألفه في زمنه الماضي، معبراً عن الوحشة التي طغت على عاطفته نتيجة لفقدانه كل ما هو قريب إلى نفسه، والوحشة تهاجم الإنسان حين يشعر "بأنه لا تربطه علاقات وثيقة مع الآخرين"^(٢)..

المحور الثاني

٧. وَهَبْتُ شَبَابِي، وَالشَّبَابُ مَضْنَةٌ، لأبْلَجَ مِنْ أُنْبَاءِ عَمِي، أَرَوْعاً!
٨. أبيتُ، معنى، مِنْ مَخَافَةِ عَتْبِهِ، وَأَصْبَحُ، محزوناً، وَأَمْسِي، مروعاً!

(١) موقف الشعراء في عصر ما قبل الإسلام تجاه الزمن بين التحدي والاستسلام: ١٤٧.

(٢) الاغتراب، شاخت، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان،

٩. فَلَمَّا مَضَى عَصْرُ الشَّبِيَّةِ كُلُّهُ، فَارَقَنِي شَرْخُ الشَّبَابِ، مُودِّعًا
١٠. تَطَلَّيْتُ بَيْنَ الْهَجْرِ وَالْعُتْبِ فَحَاوَلْتُ أَمْرًا، لَا يَرَامُ، مُنَمِّعًا
١١. فَلَوْ أَنَّ أَسْرِي بَيْنَ عَيْشٍ نَعْمَتُهُ حَمَلْتُ لِذَاكَ الشُّهْدِ ذَا السُّمِّ مُنْقَعًا
١٢. وَلَكِنْ أَصَابَ الْجُرْحُ جِسْمًا وَصَادَفَ هَذَا الصَّدْعُ قَلْبًا مُصَدِّعًا
١٣. وَصِرْتُ إِذَا مَا رُمْتُ فِي الْخَيْرِ تَتَّبَعُهَا بَيْنَ الْهُمُومِ، تَتَّبَعَا
١٤. وَهَا أَنَا قَدْ حَلَّى الزَّمَانَ مَقَارِقِي، وَتَوَجَّيْتُ بِالشَّيْبِ تَاجًا مَرَصَعًا
١٥. فَلَوْ أَنَّنِي مَكْنُتٌ مِمَّا أُرِيدُهُ مِنْ الْعَيْشِ، يَوْمًا، لَمْ يَجِدْ فِيَّ مَوْضِعًا

ويستذكر الشاعر الشباب الذي يضمن به صاحبه لندرته وجماله، الذي وهبه لـ"سيف الدولة" الذي وصفه بـ(أبلج) الذي يدل على طلاقة الوجه والحسن^(١)، فكأنه قد رأى شبابه وقوته وعزمه في شخص "سيف الدولة"، ولعلنا نستطيع القول أَنَّ الشاعر وجد في شخص "سيف الدولة" المعادل الموضوعي للشباب الدائم، والبعد عنه هرم مشيب وفقدان للإرادة من جهة، وللحياة الحرة المفعمة بكل ما يناعم عواطفه وطموحاته من جهة أخرى. ويستمر في البذل والعطاء خدمة لـ"سيف الدولة" إلى أن يمضي عصر الشبيبة ويفارقه شرخ الشباب الذي يمثل أوله وريعانه^(٢)، فنلاحظ مجيء الفعل الماضي (مضى، فارق) مع كل ما تحمله دلالة الفعلين من عذاب ولوعة، فلم يجد من حلاوة زمنه السابق ما يبعد عنه مرارة الأسر، فأصبح الأسر جرحاً ضمه إلى جانب جروحه السابقة وصدعاً حطم قلبه المصدع، إشارة منه إلى الآلام والمصائب التي حفل بها زمنه قبل الأسر، فلم تُلذ بفيه لذة إلا وأحس بأن المرارة تقتفي أثرها، مما جعله يتتبع المرارة والهم والعنت بعد كل لذة ينعمها، ولعله أراد بعدم حصوله على لذة الدنيا ونعيمها هو طموحه للسيادة والرئاسة التي كانت محط أنظاره فلم يفصح عنها إذ كانت تلك الطموحات كما قال الدكتور عبدالجليل

(١) ينظر: لسان العرب: [مادة بلج] ٤٧٧/١.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للنشر والتوزيع، د - ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: [مادة شرح] ٢٦٩/٣.

حسن عبدالمهدي: "كانت تتراءى له في أسره ولكنه كان يخنقها كلما أطلت برأسها ولاءً لسيف الدولة ووفاءً لعهد^(١)".

١٤. وَهَـا أَنَا قَدْ حَلَى الزَّمَانُ وَ تَوَجَّيْتُ بِالشَّيْبِ تَاجاً مُرْصَعاً

يبتدأ الشاعر كلامه بحرف التنبيه (ها)^(٢)، مع كل ما يحمله من مدٍّ يفرغ فيه الشاعر حزنه، فأراد أن ينبه نفسه ويطلعها على الحال الذي أصبح فيه، ولعله أورد مفردة التاج ليعبر عن طموحه ورغبته في تسلم السيادة وإدارة أمور الدولة الحمدانية، فجاءت هذا اللفظة التي يراها أحمد أبو حاقمة مرتبطة بمطامح نفسه التي كانت ترنو إلى الملك والسيادة كما ذكرنا آنفاً^(٣).

المحور الثالث

١٦. أَمَا لَيْلَةٌ تَمْضِي وَلَا بَعْضُ لَيْلَةٍ ! أُسْرَ بِهَا هَذَا الْفُؤَادَ الْمُفْجَعَا ؟

١٧. أَمَا صَاحِبٌ فَرْدٌ يَدُومُ وَفَاؤُهُ ! فَيُصْنِفِي لِمَنْ أَصْفَى وَيَزَعِي لِمَنْ رَعَى

١٨. أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي إِذَا مَا تَفَرَّقْنَا حَفِظْتُ وَضِيْعَا ؟

نلاحظ في هذه الأبيات توقف الليل وانعدام حركته، الأمر الذي جعله يتمنى أن تمضي ليلة أو جزء منها كي يريح فؤاده الذي أصبح الليل مسرحاً لآلامه، فلياليه قد اصطبغت بطابع الحزن والوحدة، ونرى شدة رغبته في مواصلة المودة بينه وبين ناسه خارج الأسر؛ "لأنَّ شخصاً يشعر بأنَّه يفتقد العلاقات الوثيقة مع الآخرين قد يحس بالرغم من ذلك بالتضامن الشخصي العام وغير الشخصي معهم بفضل طريقة الحياة التي يشاركون فيها"^(٤). ونلاحظ أنَّ الاستفهام الانكاري تكرر ثلاث مرات في الأبيات السابقة الذي يكشف لنا عن "حيرة ممتدة تغشى الإنسان بحيث لا يفلت منها"^(٥)، فهذه الحيرة

(١) أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي: ١٣١.

(٢) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٤٧.

(٣) ينظر: أبو فراس الحمداني، أحمد أبو حاقمة، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت-

لبنان، ط٢، ١٩٦٣م: ٦٤.

(٤) الاغتراب: ٢١٨.

(٥) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: ٥٩.

صيرت فؤاده قلقاً وخائفاً من أحوال زمنه التي تفاجئه بين الحين والآخر بما لم يتعايش معه مسبقاً، فضلاً عما يحمله الاستفهام من قدرة جمالية تجعلنا ندخل في صميم الصورة التي رسمها عن زمنه في الأسر^(١).

المحور الرابع

١٩. أقمْتُ بأرضِ الرومِ، عامين، لا
مَنْ الناسِ محزوناً ولا متصنعاً
٢٠. إذا خِفْتُ مِنْ أَخَوَالِي الرُّومِ خُطَّةً
تخوفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعَرَبِ أَرْبَعاً
٢١. وَ إِنِ أَوْجَعْتَنِي مِنْ أَعَادِي
لَقَيْتُ مِنَ الْأَحْبَابِ أَدْهَى وَأَوْجَعاً
٢٢. وَلَوْ قَدْ رَجَوْتُ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
رَجَعْتُ إِلَى أَعْلَى وَأَمَلْتُ أَوْسَعاً

في هذه الأبيات يذكر الشاعر حُسن معاملة الروم له، مقابل تجافي أبناء عمومته. ونراه يحدد زمن مكوثه في الأسر إذ أقام عامين في أرض الروم، لم ير فيهن حزيناً إلا إياه، ولم ير شخصاً متصنعاً بالمحبة يظهر خلاف ما يبطن "عكس أصحابه الذين كانوا يتصنعون المحبة له، الذين كشفتهم محنة الأسر على حقيقتهم، فنقل شعوره حول الواقع الاجتماعي في بلاد الروم، ذلك الشعور الذي يُنظر إليه من جهة كون صاحبه أسيراً مُعنى، يعيش وطأة الإحساس بالقيود والغربة والحرمان"^(٢). ونرى أنه جاء بالفعل الماضي (خفت) في معرض كلامه عن خوفه من الروم، والفعل (تخوفت) في معرض كلامه عن خوفه من بني عمومته، فالفعل (خفت) يدل على الخوف الذي تعارف عليه الإنسان، عكس الفعل (تخوفت) الذي يدل على زيادة الخوف وكثرته من بني حمدان، ولعل هذا يدل فيما يدل على شدة تخوف الشاعر من أبناء عمومته؛ لأنه يرى فيهم خلاصه من الموت المحقق عند الروم.

(١) ينظر: الحوار في شعر أبي فراس الحمداني دراسة تحليلية: ٢٣٤.

(٢) الأسير الحر أبو فراس الحمداني: ٨٣.

المحور الخامس

٢٣. لَقَدْ قَتَّعُوا بَعْدِي مِنَ الْقَطْرِ
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا الْقَنُوعَ تَقْنَعَا
٢٤. وَ مَا مَرَّ إِنْسَانٌ فَأَخْلَفَ مِثْلَهُ؛
وَلَكِنْ يَزْجِي النَّاسُ أَمْرًا مَوْقَعَا
٢٥. تَتَكَرَّرُ "سَيْفُ الدِّينِ" لَمَّا عَتَبْتُهُ،
وَعَرَّضَ بِي، تَحْتَ الْكَلَامِ، وَقَرَعَا
٢٦. فَقُولَا لَهُ: مِنْ أَصْدَقِ الْوُدِّ أَنَّنِي
جَعَلْتُكَ مِمَّا رَأَيْتِي، الدَّهْرُ مَفْرَعَا
٢٧. وَ لَوْ أَنَّنِي أَكُنْتُهُ فِي جَوَانِحِي
لَأُورِقَ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَفَرَعَا

يصف الشاعر في هذه الأبيات حال قومه بعد فقدهم إياه وما حلَّ بهم، فقد قنعوا بعد العز الذي قدمه لهم بالهوان، ويرى أنَّ لا أحد قادر على أن يسد مكانه الخالي، معبراً عن حكمته في الحياة التي ترى الناس ليسوا سواء، وإنَّ مات الإنسان لن يأتي أحدٌ يتصف بصفاته التي تميزه عن غيره، ولا يستطيع أحد أن يقدم ما قدمه لبلاده، فكل هذه المنجزات العظيمة لم ينتبه لها "سيف الدولة" وتناساها بغياب صاحبها، فتتكرر لأبي فراس بعد معانيتها، وعرض به وقعه بالكلام تقرّيعاً، كل ذلك كان نابعاً من الدسائس التي حاكها ضده العصابة التي تحيط بـ "سيف الدولة: الذين اغتبطوا لأسره لأنَّه أتاح لهم فرصة لم تكن سانحة لهم بوجوده بينهم^(١)، إلَّا أنَّه لم يحمل حقداً أو عداوة لـ "سيف الدولة"، بل على العكس فإنَّ محبته ساكنة قلبه، وقد جعله مفرعاً ومنجى لكل ما يريبه من الدهر، مشبهاً حبّه له تشبيهاً ضمناً، بأنَّه لو أسكن محبة "سيف الدولة" في جوانحه لأورقت ونمت فيها الحياة، فكانه أراد أن يغيض الوشاة والحساد الذين تأمروا عليه عند "سيف الدولة".

المحور السادس

٢٨. فَلَا تَغْتَرِرْ بِالنَّاسِ، مَا كُلُّ مَنْ
أُخْوِكَ إِذَا أَوْضَعْتَ فِي الْأَمْرِ أَوْضَعَا
٢٩. وَلَا تَقْلُدْ مَا يَرُوعُكَ حَالِيهِ
تَقْلُدْ، إِذَا حَارَبْتَ، مَا كَانَ أَقْطَعَا!
٣٠. وَلَا تَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ!
سَأَرْضِيكَ مَرَّأَى لَسْتُ أَرْضِيكَ مَسْمَعَا

(١) ينظر: أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي: ٣٦٨.

غلب على هذه الأبيات طابع الحكمة التي اكتسبها الشاعر من تجاربه في الحياة، إذ تمثل تلك التجارب "ثمرة الاستمرار على ممارسة الشيء مما يمكن إعطاء أبعاده وفلسفته"^(١). فيذكر الوشاة والساعين بالوقية الذين شوهوا صورته أمام "سيف الدولة"، وأراد أن يُذكر "سيف الدولة" بإقدامه وتفانيه لأجله، ويطلب منه أن ينتبه لمن حوله من الناس، وأن لا يغتر ولا يثق بهم، فالأخ الحق إذا ما رام "سيف الدولة" أمراً فإنّه يسارع في مشاركته، وتقوية ساعده، ويطلب منه أن لا يتقلد سيفاً يروعه ما زُين به من حلي، ولكن عليه أن يتقلد السيف القاطع الذي لا يهاب المعارك، وهو بهذا يكتفي عن نفسه بالسيف القاطع الذي لم يكن سيفاً للتباهي والجمال وإنما كان سيفاً قاطعاً على رؤوس أعداء "سيف الدولة".

المحور السابع

٣١. قَلِيلَ إِحْسَانٍ عَلَيَّ وَنِعْمَةٌ؛ وَ لِلّٰهِ صُنْعٌ قَدْ كَفَانِي التَّصَنُّعَا
٣٢. أَرَانِي طَرِيقَ الْمُكْرَمَاتِ، كَمَا عَلَيَّ وَأُسْمَانِي عَلَيَّ كُلِّ مَنْ سَعَى
٣٣. فَإِنَّ يَكُ بَطْءٌ مَرَّةً فَلَطَّالَمَا تَعَجَّلَ، نَحْوِي، بِالْجَمِيلِ وَأُسْرَعَا
٣٤. وَ إِنْ يَجْفُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لِأَشْكُرُهُ النِّعْمَى الَّتِي كَانَ أَوْدَعَا
٣٥. وَ إِنْ يَسْتَجِدُّ النَّاسُ بَعْدِي بِذَلِكَ الْبَدِيلِ، الْمَسْتَجِدَّ،

تضمّن هذا المحور استنكاره لحياته الماضية في ظل "سيف الدولة" التي وجد فيها حسن معاملته له، وما أسبغ عليه من الجود والإحسان والنعمة، وجعله فارساً مغواراً، وأراه طريق المجد بتقليده إمارة (منبج وحران)، وعلى منزلته على كل من كان حوله، فهو لا يبالي بتأخر مفاداته منه، فقبل هذه المحنة طالما تعجل "سيف الدولة" بتقديم العون والجميل له، وحتى إن جفاه فإنّه مستمر في الثناء على كل ما قدمه له من نعم، وإن استبدله بغيره من الفرسان، فإنّه لا يستطيع الاعتماد عليهم كاعتماده على أبي فراس.

(١) موضوعات الشعر العربي القديم ودلالاتها النفسية والفنية، أ.د. علي حسن جاسم، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، د - ط، ٢٠١١م: ٣٣.

نلاحظ ارتباط مقدمة القصيدة بنهايتها^(١)، فجاءت حاملة لأفكاره وأوجاعه إذ قال في بيته الخامس، وفي بيته السادس والعشرين:

٥. خَلِيلِي، لِمَ لَا تَبْكِيَانِي صَبَابَةً، أَبَدَلْتُمَا بِالْأَجْرَعِ الْفَرْدِ أَجْرَعَا ؟

٢٦. فَقُولَا لَهُ: مِنْ أَصْدَقِ الْوُدِّ أَنَّنِي جَعَلْتُكَ مِمَّا رَأَيْتَنِي، الدَّهْرَ مَفْرَعَا

نلاحظ نداءه لخليليه في مقدمة القصيدة وعتابه لهما على نسيانهم إيَّاه، وفي نهاية القصيدة طلب منهما أن يوصلا كلامه إلى "سيف الدولة" نيابة عنه، وهذا يدل على صدق عواطفه التي زادت من تعلقه بأهله وكل ما يذكره بزمن حريته التي صرعه الزمن أمام ناظره، ونرى عواطفه جعلت صورة خلانه ماثلة أمامه تذكره بماضيه الذي طرزه بكل معالم الفخر والعزة. ونلاحظ كثرة الأفعال الماضية التي تمثل معادلاً موضوعياً لحياته التي لم يبق منها غير زمنه الماضي، وجاءت بعض الألفاظ تحمل لذته وتزهو بالحياة والحركة التي ترنو إليها نفسه ومنها: (الحياة، الصبابة، الوجد، الخليل، النعمة، الشهد، التاج العيش...)، وبعض الألفاظ التي حملت الألم في ثناياها، كانت مؤشراً على شعوره بالضيق، ومنها: (الحزن، الأجرع، المضنة، الهجر، السم، الجرح، الصدع...)، ونلاحظ أنَّ أكثر الأفعال الماضية اتسمت بطابع التشاؤم والخوف الذي يحمله جو الأسر، ومن هذه الأفعال: (ضنت، فارق، أصاب، تفرقنا، ضيعا، خفت، تخوفت، أوجعتي...)، فضلاً عن ذلك فإنَّه أكثر من استخدام صيغة (تَفَعَّل) التي تدل على المطاوعة والتكلف^(٢). ولعلنا نستطيع القول أنَّ الشاعر لم يوظف هذا الوزن اعتباطاً؛ بل حاجة في نفسه قضائها؛ رغبة في الخروج من وطأة هذا الزمن البائس.

(١) ينظر: أبو فراس الحمداني في روميته، د. خالد بن سعود الحليبي، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ١٠٦.

(٢) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تح: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م: ٢٧١.

خاتمة البحث ونتائجه

خلال بحثنا واستقراءنا لشعر أبي فراس الحمداني، وجدنا كثرة توظيفه لتقنية الاسترجاع في أشعاره، ذلك الاسترجاع جاء مصطبغاً بصبغة صدق العاطفة التي يحملها الشاعر تجاه كل ما تعلق به فؤاده، إذ وظّف هذه التقنية لاسترجاع أهم لحظات السعادة والألفة مع حبيبته، وأهله وناسه. وقبل أن يؤسر الشاعر كان يوظف تقنية الاسترجاع لتذكر لحظات اللقاء مع حبيبته، وما دار بينها من طيب اللقاء ولذته، وفي أسره انفجرت ينباع عواطفه صوب كل ما يثير في نفسه الراحة والطمأنينة بعيداً عن وحشة وغربة الأسر. وعندما وقع الشاعر أسيراً عند الروم أكثر من توظيف هذه التقنية لاسترجاع أهم لحظات الحرية المكتتزة بكل ما هو جميل وقريب إلى روحه وقلبه وعواطفه، إذ نراه يسترجع لحظات اللقاء مع الحبيب الذي فارقه، ويسترجع ذكرياته مع "سيف الدولة" التي اتسمت بطابع المودة والألفة، محاولاً بذلك أن يرقق قلب "سيف الدولة" وتذكيره بما يكن له من محبة ثابتة، وعاطفة صادقة لا تغيرها مصائب الزمن.

الظروف المحيطة بالشاعر في حاضره كان لها دور كبير في تأجيج عواطفه، ورجوعه صوبه ماضيه يغترف من طيب منهله ما يروي عطشه في حاضره الذي وجده مختلفاً عن ذلك الماضي.

كان للمشيب دور مهم في تأجيج عواطف الشاعر للرجوع صوب الماضي المتمثل بالشباب والقوة؛ لمواجهة عنت المشيب المتمثل بنفور النساء منه، وفقدانه للحياة والنشاط.

أكثر الشاعر من ذكر ثنائية (الليل / النهار) وبين لنا نظرته تجاه هذه الثنائية، إذ كان يميل صوب الليل أكثر من النهار؛ لما يتميز به الليل من لقاء الحبيب والراحة النفسية واللذة، عكس النهار الذي كان مرادفاً للشامتين والحساد، إذ يفتقد الشاعر فيه حبيبته.

استرجع الشاعر أجمل لحظات لقاءه مع حبيبته في زمنه الماضي، بعد أن هاجمه الحاضر بثقله ورتابته، إذ توجهت عواطفه صوب ماضيه كي يبعد عن نفسه شبح الحاضر الذي عنه غيب كل ما هو عزيز وقريب إلى عواطفه.

The emotional retrievals in Abi Firas Ahamadani's poetry

Dr. Nawar Abdul Nafaa Al-Dabbaq Waleed Abid Yaseen

Abstract

Time is considered an effective factor in the literary text for it has a role to reveal the idea of the poet of the universe and people. We chose the retrieval in Abi Firas Ahamadani's poetry for his poetry is full of retrievals which was used to enrich literary text. This research deal with studying the technique of time (retrieval) in Abi Firas's poetry. We concentrated in our study on the retrievals. we mentioned in our study on the emotional retrieval toward hislovers ,Saif al Dawla and the most important moments of his previous life.